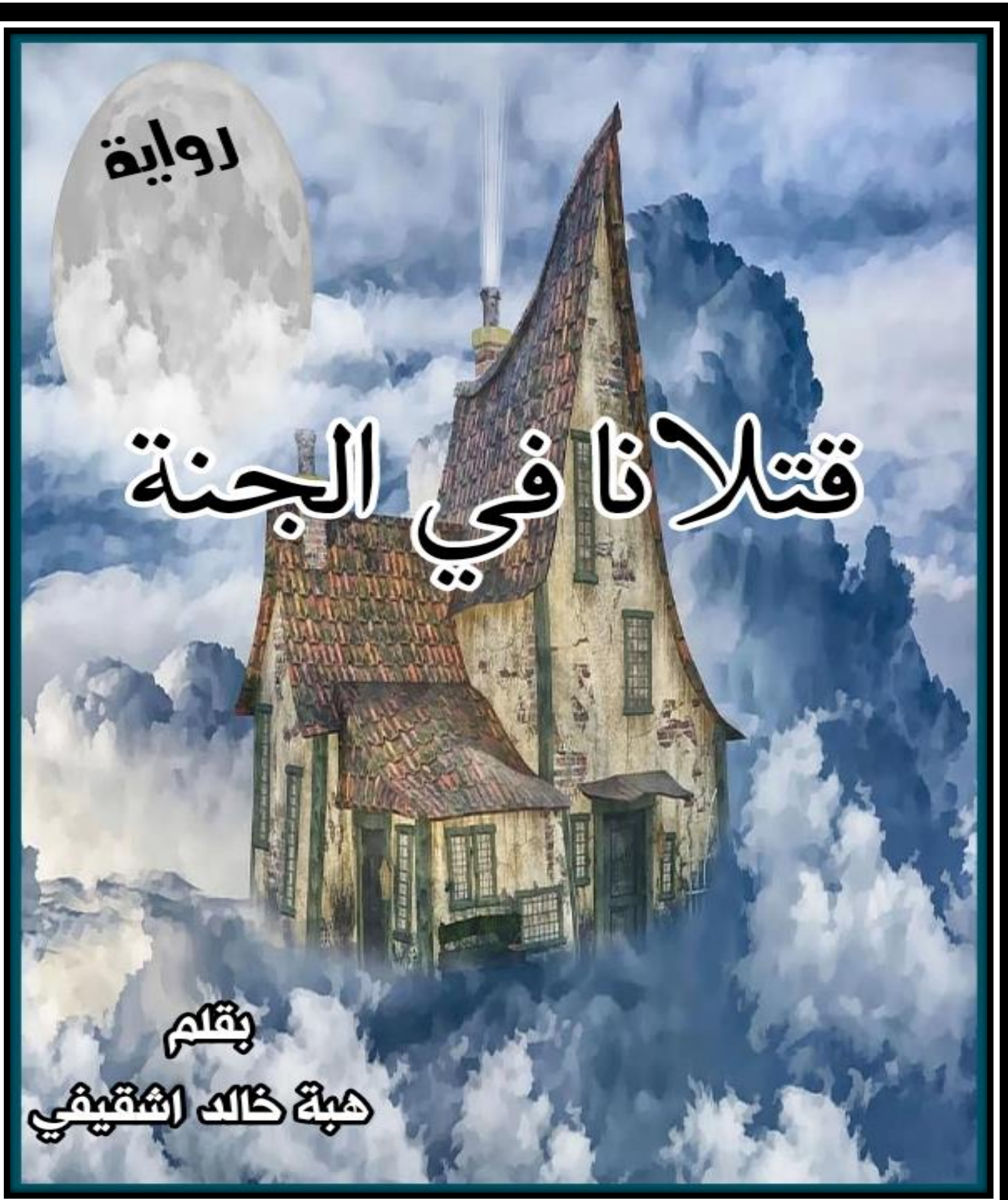
رواية
قتلانا في الجنة
بقلم
هبة خالد اشقيفي

جاء عمرُ بنُ الخطابِ، فأتى الرسولَ فقال يا رسولَ اللهِ! ألسنا على حقٍّ وهم على باطلٍ؟ قال: (بلى). قال: أليس قتلانا في الجنةِ وقتلاهم في النارِ؟ قال: (بلى) قال: فعلامَ نُعطي الدنيَّةَ في ديننا، أنرجعُ ولمّا يحكم اللهُ بيننا وبينهم؟ فقال: (يا ابنَ الخطابِ! إني رسولُ اللهِ، ولن يُضيّعني اللهُ أبدًا).

ثم عاد الكرّة مع أبي بكر وكان منه الرد نفسه

فنزل القرآنُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالفتحِ. فأرسل إلى عمرَ وأقرأَه إياهُ. فقال: يا رسولَ اللهِ! أو فتحٌ هوَ؟ قال (نعم) فطابت نفسُه ورجع.

اللهم إنا نسألك الفتح في جبل الزاوية وغيرها

رحم الله عمر في عدله محكمة وفي لباقة ألفاظه مدرسة

أقول قتلانا في الجنة ولم أشأ أن أزيد على مَن هو أشرف وأقوى وأقرب إلى الله مني فأقول شهداءنا أسأل الله أن يكونوا كذلك ثم أكمل وقتلاكم في النار ولأنه الفاروق رضي الله عنه لم يقل فيكم إلا قتلى فلن أبدّل القول بمَن فقدتم احتراماً لخلق الله واتّباعاً أخلاق نبينا وأصحابه.

قتلانا في الجنة

إهداء:

إلى المنكسرة قلوبهم

(1)

-متنا إذاً؟

-لا يا عمر بل من اللحظة التي بدأ فيها صعودنا بدأت حياتنا الحقيقية حياةً مخملية نقية كطفلٍ لامس جسده الناعم صابون حلب الغار

حياةً بيضاءً يتمايل الياسمين الشامي على أجفانها

حياةً زيتية وزيتونية شامخة كالتي شاخت في إدلب وعزها في ريعان شبابه وقد توقف عن الكبر

لقد عشنا يا أخي منذ أن متنا

-ليتنا متنا قبل ذلك ولكنني أتألم لحال أمي المسكينة ونار الفقد تتأجج داخلها وقد كسر موتنا هيبة أبي ثم تخبرني بمستقبلي هنا

-تعال أسألك سؤالاً وتجيب بدقة!

قبل أن تتزوج أمك من أبيك وقبل أن يفكرا بإنجابك أما كان عندهم من العلم أن يعرفا بيوم موتك

-لا أعتقد وإن وقع ذلك بالفعل فلا أظنهم يأتون بي منذ البداية أم ترى غير ذلك يا بلال

-لا يا عمر هما يعرفان فمنذ بدء البشرية عرف الناس أن الموت كأسٌ سيشرب منه كل واحدٍ شاء أم أبى ولكن المجهول في الأمر هو التوقيت والطريقة

-وما سبب ذاك البكاء والنشيج فصوت أمي لا يزال يسكن رأسي ثم دمعات أبي الصامتة تزرف في قلبي الجاف حتى الآن

-هما لا يبكون رحيلنا كما تعتقد

هما يبكون أنفسهم يرثون أرواحهم يشيّعون آمالهم كل ما في الأمر أن فقداننا ذكرهم بأحزانهم فأكملها

-هكذا إذاً لو صار بهم مثلي وكنتُ مكانهم أتراني أبكيهم أم أبكي نفسي

-الآن تجد في حالتك ما يثير البكاء ويهيج الأوجاع!

-للصراحة لا بل أجد الراحة التي تعبتُ قبلها أجد نفسي في تلك المنطقة بيد أن الغيمات تؤنسني ومن

تحتي يطلع القمر ثم تبادله الشمس المكان على التناوب من تحت ناظري والهدوء هنا راق لي كما لم أهنأ من قبل حتى طائراتهم القذرة صرتُ فوقها وتلك النجمات الباكيات المنكسرات لطالما كلمتُهنّ وأنا حي وأخبرتُهنّ عن المجازر والضحايا وما كان منهنّ إلا أن يتصدّع لمعانهنّ وكأنهنّ لا يعرفن من المواساة سوى التعتيم

-لو كنت مكان أهلك الآن ستحزن على نفسك ولا أحد غيرك جديرٌ بذاك الحزن

-بلال ...أتحسب أننا سنرى الله كما سمعنا من زوجة المدير بالأمس حيث قالت بصوتها شبه الرجولي كيف سيلقى وجه ربه إذاً لا بد من أن نلقى وجهه

-سنفعل وقد فعلنا على أية حال

-كيف!!

لا لم نره حتى الآن ربما لم نمت بعد

-بل رأيناه قبل أن نموت وربما كنا أمواتاً في تلك الحياة رأيناه في خلق شجرة السرو الكبيرة خلف

منزلنا تلك التي كنا نختبئ وراءها منتفعين بظلها ونحلم

رأيناه حين ماتت جميلة بالأمس تلك الطفلة التي أصابتها الرصاصة في حافة قلبها وبعد أن نفضت يدها وغادرت قلبها نبضاته البارد عادت إليها الحياة كما يسمونها وكأن موتاً لم يمسسها قط

رأينا الله في زرقة البحر ورأيته في عينَي أمي حين سحبتني من تحت الركام ترمقني بتلك النظرة الثاقبة كادت نظرتها أن ترجعني لولا أمر الله؛ أي خلقٍ هذا وأي خالقٍ أبدع من ربك ثم تتعجب من كوني رأيته

-بلى والله لقد رأيناه

(2)

-كفاكِ ندباً وتعذيباً فقد شاء ربكِ أن يسترد أمانته

-قطعتان من قلبي أمانته لا بل قلبي كله

-لن أسمح لكِ أحبيهما وابكيهما كما تشائين لا حرج فهما والله كل ما كان لنا من السعد ولكن قبل أي شيء احمدي الله واستغفري ولا تنسي بلحظة يأسٍ نعيم الصابرين

-أستغفر الله اللهم قد رأيتَ مني الضعف وقلة الحيلة فساعدني يا الله

-إنما أشكو بثّي وحزني إلى الله تقبل الله ولدَينا شهيدَين

-أم بلال تعالي معنا لنقيم جلسة ذكرٍ لله نسأله أن يتقبلهما من الشهداء

-امضي مع سلمى واستهدي بالله ولا تنسي أننا لله وإنا اليه راجعون

-نحمده ونستعين به انتبه لنفسك ولا تخف على زوجتك فالحزن يقسم الظهر وألم الفراق عصيب ولكنّ الإيمان بالله وأحكامه أقوى

-أتدري كم أحبك

استغربت ليلى من كلمته تلك بقلبها المنكسر وبعد الذي كان من القصف والدمار والدماء بعد أن فقد ولدَيه فرحته الأولى يقولها!!

ذهبت ليلى مع سلمى ابنة عمها حيث اجتمعتْ النسوة في بيتها يؤدّون واجب العزاء والمواساة وقد كانت بينهم حيث لم تكن شعرت وكأنّ منزلها سقفٌ بلا جدران حاولت أن تبكي وثمة دمعةٍ لم تنزل طرق قلبها ينبض ببرودٍ وثبات راحت عيناها تتسع وتذبل وشفتاها تتقلص كما تفعل روحها

أما راجي أبو عمر فقد ألزمه جيرانه وأقاربه أن ينزل إليهم وقد عزموا على بدء مراسم العزاء لا يأبهون بتلك الطائرة الحربية اللعينة التي تحوم فوقهم حتى

قذفت سمها فوق رؤوسهم، أمام أبصارهم لتهدم منازلهم عن بكرة أبيها وينجون من ذاك الكابوس بأرواحهم بأعجوبةٍ لا تُصدق

-راجي أين أنت أيسمعني أحد!!

راحت ليلى تسأل بذعرٍ وتنادي بصوتٍ مكبوتٍ فقد دُفنت كل كلماتها في حنجرتها المُكبّلة

وعلى بُعدٍ محدودٍ كان راجي ينادي هو الآخر هائماً على وجهه يتغمّده الخوف

-سلمى أنت بخير؟

أين ليلى

سلمى أرجوك لا تغمضي عينيكِ

إياكِ والموت ليس الآن على الأقل انهضي من فضلك

بلا أي جوابٍ حتى كاد يجزم بأنها ماتت وتركته ليبحث عن زوجته بمفرده

نقلها وهي تلقط أنفاسها كطيرٍ ضعيف قد كُسرت للتو أجنحته وعطش في صحراء

الصوت لا يفارقهم وكأنه استمر لأعوام

كان يردد راجي في سره

-كيف أخبرونا أن مَن تقصده القذيفة وتنفذ الطائرة حملها فوقه

لا يسمع دويها تباً لهم كاذبون

-ليلى أنتِ هنا إذاً!!

الحمد لله

قلب تلك المرأة المغبرّ ثوبها الأسود كاللون الذي ارتدته ليلى في الليلة ذاتها

-عذراً أختاه فأنا... دعيني أسعفكِ الآن

وما يقصد بالإسعاف هنا!!

كان ينقل كل مَن ارتطم فيه قدره بضعةِ أمتارٍ بعيداً عن الركام

صرخ حتى كاد أن يفرغ كل ما في جوفه إثر صوته المرتفع

-أين أنتِ ليلى ردي

فجاءه صوتٌ أنثويٌّ مختنقٌ قد حفظ نبرته

-راجي أنا هنا

ركضت إليه بخطواتٍ تشبه تلك التي يحبيها طفلٌ في مرحلته الأولى من تعلم المشي

وبعد رحلة السفر التي أوصلتها إلى زوجها بميترات يمكن عدها قالت بصعوبة

- كيف نجونا!!

-أتسألين زوجكِ المسكين وكأنني أعرف حتى أجيبك ما يهمنا أننا نجونا ولندع الباقي لله

صرخ بصوتٍ عالٍ سمعه مَن كان حياً عموماً ما كانوا كثرً

-فلنغادر الآن قبل أن

وقبل أن يكمل جاءت الطامة الثانية

أوقعته أرضاً وليلى من بين يديه تفلّتت وشخصت عيناها وهي تردد الشهادتَين بصوتٍ مجروح

زادت العتمة مع القذيفة الثانية التي زادت من عدد الضحايا ليبقى ثلاثة عشر ناجياً من ذاك الجحيم

استجمع راجي قواه وراح ينادي بصمت

-أهناك أحياءٌ بعد!

فترد عليه ليلى وترد له روحه

-راجي أنا بخير وأنت!

-لم أمت حتى الآن

وحركت سلمى إصبعها مع شفتيها تحاول أن تنطق وما كان لها أن تفعل فقد أُصيبت بشظايا في جسمها

وإثر ذلك رافقها شللٌ مؤقتٌ في الأطراف وثقل الكلام على لسانها ربما هذا ما أصاب راجي وليلى في بادئ الأمر

-تعالي معي نتعاون على انتشال سلمى من الموت

-لن أقدر

-بل تقدرين لا تيأسي فإن الله معنا

لم تقدر ليلى على الكلام فقد كانت محمّلةً بشعورَين ثقيلَين تفرح لسلامة زوجها بعد تلك العاصفة العاتية وتحزن لما فاتها من فرص مرتين كادت أن تلحق بحبيبيها عمر وبلال ولكن الأقدار عرقلت الطريق

نهض كل من كان فيه روحاً لم تذهب لبارئها بعد ومن أجل غريزة البقاء التي تحرك كل ساكنٍ تحاملوا على أوجاعهم وهربوا من الموت

تمكّن راجي وليلى من سحب سلمى إلى مكانٍ تحت الأرض وربما فوق الأرض وظنوها فوقه لكثرة الظلام والرعب داخليهما

-السلام عليكم

قالها راجي بصوتٍ يرتجف برداً خوفاً وحزناً فقد صدمته لا بل زادت من صدمته الأولى تلك القذائف والصواريخ التي لا والي لها

فرد عليه عمران الطفل الجميل بعينَيه الزرقاوين وأكثر ما زاد من رقتهما وجمالهما ذاك الدمع العصيّ وكأنه دُفن في مقلتيه منذ زمنٍ وما شاء له الله أن يُردم بالكامل

-وعليكم السلام عماه ضعها هنا إنها بخير لا تقلق

طفلٌ يهدّئ من روع رجلٍ ويخبره ألّا يقلق أبعد هذه الرجولة رجولة!!

-سأفعل يا بني

ثقلت الكلمات على قلب راجي قبل لسانه فعمران بسن عمر تقريباً وله من الملامح ما تشبه تفاصيل ابنه أيضاً سارع كل مَن هم لجأوا إلى المغارة

وساعدوه في رَكنها كعجَلةٍ تعطلت في منتصف الطريق ولا بد من تصليحها

-سلمى انهضي يا ابنة العم إنني أنتظركِ على الرحب يا رفيقتي

-ليس الآن يا ليلى دعكِ من هذا ستفيق إن شاء الله اطلبي من النسوة بعض الماء حالاً

-ألدى إحداكنّ ماءً لأمرٍ ضروري فيه موتٌ أو حياة

لا وتقولها حياةً وبكل ثقةٍ تلفظ حروفها المسكينة كانت تظن أنها تعيش حياةً كالحياة على بساطتها فهمتها أم سعيد

-تفضلي هذا ما خرجتُ به من بيتنا وبتعبيرٍ أدق هذا ما تبقى من شيءٍ كان اسمه بيتنا

-لا عليكِ ستُفرج بإذن الله

-راجي خذ هذا الإناء ربما ينفع

غسل راجي قطعةً قطنيةً قد أخذها من كمّ قميصه وغسلها من كل شيء الغبار والدم من الخيبة والقهر نظّفها إلا من الانكسار وهشاشة الروح ثم ناولها لسعيد الذي درس في معهد التمريض لسنةٍ ونصف

وقد تمكّن من إنقاذها لتفتح عينَيها على مشهدٍ غير الذي غادرها وعيها فيه

-أين النسوة التي كانت تندب وتلطم ثم تردد التسبيح والاستغفار وتدعي من قلبٍ قد كسره الظلم وأحرقته الحرب

كيف تبدّل مظهر ليلى للأفضل لا بل للأسوأ في حقيقة الأمر لا تعرف إن كان ثوبها الذي تحول سواده إلى بياضٍ تعلوه حمرةٌ كانغماس جمرةٍ ملتهبة في جبلٍ من الثلج

أهذا تحولٌ إيجابي!! لا داعي للخوف فقد اختفى السواد على أية حال

ها إنهم رجالٌ هنا وهذا كتفي الأبيض أتراهم يلاحظونه كيف لي أن أستلقي أمامهم وكأنني في غرفتي على سيرة غرفتي كانت هنا قبل قليل أين هي الآن

ثم مَن هذه التي أمامي تقف على رأسي بجانب ليلى وكأنها علاقةٌ تربطني معها لحظة.... كل هؤلاء النساء اللواتي يقفنَ بانتظار حركةٍ مني يبدو مظهرهنّ كأنهنّ على استعداد لينطلقوا في الحرب بأي لحظة ولكنهنّ بعيدون جداً

يا إلهي عمر أنت هنا يا صغيري اشتقتُ إليك

سارع راجي يطمئن ليلى على ابنة عمها الغارقة في دمها

-الحمد لله يا ليلى قد بدأت تفتح عينَيها وانتظم نبضها هكذا يخبرني سعيد

-الحمد لله سأخرج إليها حالاً

-ولكن من بين الرجال!!

كل تلك الظروف الصعبة التي مرت على راجي وسكان الجبل أجمع لم تؤثر ولو بذرّةٍ على حبه لزوجته وغيرته عليها

وهذا ما أعجب نساء تلك المغارة التي تشبه القبر حيث اتخذ كل من الفريقين رجالاً ونساءً موقعين منفصلين والتجأوا فيهما فردت إحداهنّ ضاحكةً بألمٍ وقد تاهت الضحكات أثناء عبورها لشفاه أهل القرية عامةً فقد طال بهم الشقاء

-أتغار على زوجتك وكأننا في جنة ممَن تغار!!

من أولئك الصبية خارجاً صدقني قد عميت عيونهم فما بقي لهم من بصر إلا البصيرة التي تمسّكت بالبعض

-لا أقصد الغيرة ولكنه الأفضل أن تكون معكنّ

-بل نكون معها

خرجت مع باقي النساء تطمئن على سلمى التي فاقت من غيبوبتها لبضعة ثوانٍ ثم ما لبثت أن عادت إليها مجدداً فما وجدت ليلى أي تغيير طرأ على حالتها

-هيا يا سلمى فقد أطلتِ القيلولة هذه المرة

(3)

-أتذكر يا بلال يوم مولدنا

-أذكر فإننا قدمنا تلك الحياة في يومٍ ماطرٍ عصفت فيه الرياح وهطلت الأمطار وكأنها الليلة الشتوية الأولى التي شهدها الجبل

-نعم فقد شعرتُ بطعنات البرد من اللحظة الأولى التي نزلتُ فيها من جنتي أظنها تشبه لحظة نزول آدم للأرض

-كذلك أنا إلا أنني لم أشعر بالبرد وحسب بل اجتاحني شعورٌ بالندم كيف لي أن أغادر ذاك الركن الهادئ الدافئ لألبث في مكانٍ ليس مكاني وزمانٍ لغيري ومع أشخاصٍ لا أشبههم ولا يشبهون روحي

-ثم بدأ الجمال

-أي جمالٍ هذا الذي بدأ يا عمر !!أتقصد الحلوى التي وُزّعت لقدومنا أم الملابس الزرقاء التي انتظرتنا

-لا أقصد كل ما عشناه قبل أن يتوقف التاريخ؛ ذلك الجمال عينه

-ومَن أخبرك أن التاريخ قد توقف!!

-لا أعني تاريخ البشرية أقصد تاريخنا نحن في جبل الزاوية

-ربما لي رأيٌ مشابه

-لا بل عندك لا ريب

-قد عشنا أياماً مليحةً بالفعل

-مجرد أن تتذكر تلك الأشجار الصغيرة التي صارت مسؤوليتنا وصرنا المؤتمنين على رعايتها تبتسم لا شعورياً؛ أذكرك حاملاً إبريق الماء الأحمر وتركض رافعاً سفل سروالك تنادي سأسقي "الشتلات" لا تلحق بي

وحالما أسمع منعكَ إياي من اللحاق بك أركض إليك كما لو أنك تناديني بإلحاح ونضحك بعدها بطفولة

-نضحك فقط!

-لا بل وتركض خلفي وبيدك الإبريق وقطرات الماء التي تتطاير بنسيم الجبل وقد صوّبتها على ظهري فكان لا يأتيني منها إلا القليل

-سأعود بكَ لما قبل ذلك بكثير

-وعندي في أرشيف الذاكرة ما يكفي لاستعادته ومن الشغف ما يجعلني أستعجلك في الكلام

-السيرة الذاتية المصغرة أتذكرها كنتُ من حصة أبي وكنتَ من نصيب أمك

-ما أجملها من أيام حين أخبرتني أمي باسمي عمر ثم أخبرني سبب تسميتي نسبةً للصحابي الجليل عمر بن الخطاب وقصّت عليّ بعض مواقفه ورواياته مع النبي صلى الله عليه وسلم

-كما ذكر لي أبي الكثير من مواقف بلال بن رباح وثباته وتمسّكه بقضيته حيث سُميتُ على اسمه

-وهذا فقط ما تعلّق بالاسم أما الهوية التفصيلية فكانت في شرح الإسلام الذي انتمينا إليه بالعقل لا الوراثة ثم الوطن ابتداءً بغرسة بذرة زيتونٍ في حقلنا ولا انتهاء له، أتصدق كنتُ أتلعثم بلفظ تلك

الكلمة بحروفها الثلاث البسيطة "وطن" إلا أنها قضيةٌ لا حروف

-وعينا يا أخي منذ الصغر على احترام المقدسات ومن بينهم الوطن بل على رأسهم بعد الدين الوطن

-ثم جاء دور الهدف بعد أن حدّثونا عن الشرف والأخلاق والإنسانية التي رضعناها مع الحليب المضاف إليه حب الكرامة وكره الذل

-ذاك الهدف الذي ظننته كحليب أمنا ثم فكرتُ في الأمر لا بل أهم منه فالحليب سينقطع في العامين أما الهدف فلا انقطاع له ثم شبّهتُه بالماء إنما هو أكثر ضرورةً فالصائم يصبر على فقده الماء نهاراً كاملاً ولا حياة بلا الهدف

فما هو إذاً أيكون هواءً مثلاً لا حتى هواءً لم يكن فللهواء بديلٌ صنعيّ والهدف فريدٌ لا مشابه له

-أعظم من كل ما ذكرت الهدف أسمى ما يمكن للعقل البشري تصوّره

-نعم والله أسمى

(4)

-أين أنا يا! ليلى إنه هنا عمر كان هنا

-الحمد لله على سلامتكِ

-لماذا تدورون بهذا الشكل ليلى قفي فقد أزاغ دورانكِ نظري

-لا عليكِ خذي هذا الماء وتصحين به إن شاء الله

-أضيئي المكان فأنا لا أرى وجوهكم كما يجب

-لا يجب شيءٌ الآن أنتِ بخير وهذا المهم ارتاحي وسيكون كل شيءٍ على ما يرام

-عمر وبلال أين يذهبان لله درهما ما أكثر غيابهما

-هما في الجنة ووعدناهما أن نلحق بهما حين يأذن لنا الله

بدا على سلمى التعب الشديد كما بان الخوف على ملامح ليلى فاقترب راجي منها أكثر وهمس في أذنها

-ليلى تعالي معي ريثما يخيط سعيد جرح سلمى

-حسناً جزاك الله خيراً أخي سعيد

-ما أصبركِ يا ليلى ما كنتُ أحسبكِ بهذه القوة

-الحمد لله هذا مدد الله وعلى حسن ظني به يكافئني بالصبر

-الحمد لله أما تلاحظين هدوء القذائف

-لا ردها الله فقد أتعبتنا حقاً، أتدري أشعر وكأنني امرأة ستينية أتعبها عبور الطريق

-لنتمكن من العيش علينا أن نجيد النسيان،

أتذكرين يا ليلى أيام خطوبتنا

-لا أعتقد ذلك ولا أجدني جاهزةً للنقاش بأمر كهذا فالخوض معك بحوارٍ من هذا النوع يحتاج المزيد من التحضير، أذكر يوم التقيتكَ للمرة الأولى فكيف لا أذكر أول سعادتي

-أخبريني بالقصة

-أنسيتَها!

-بل نسيتُ كل ما قبلها لأكرّس ذاكرتي لتلك اللحظة وما بعدها ولكنني أحببتُ أن أسمعها منكِ

-يوم الأضحى سهرتُ وأهلي طيلة الليل حتى بدأ الناس في المساجد بالتكبير والتهليل وخرجتُ مع سلمى وأختي مليحة رحمها الله وقد بلغتُ يومها العاشرة من عمري ثم تزينتْ كل واحدةٍ منها بحليّها وقصدنا منازل الجبل واحداً واحداً نلقي عليهم عبارات المعايدة بكل حبور وحين طرقنا بابكم فتحتَ لنا بوجهك الضاحك وقد انتصبتْ خدّاك لترتسم فيهما غمّازتان خطفتْ كلٌ منهما قلبي من جهة، شعركَ البني المائل للحُمرة كان يغازل جفنيّ فراحت عيناي تغمض وتفتح على عجلٍ لترى ذاك البهاء نفسه وبنظرةٍ من عينيكَ العسليتَين وبريقهما حيث بدت لي على مشارف البكاء ثم لمحتُ فيهما حلمكَ الذي خبأته عن الجميع لسنوات عرفتُ

حينها أني لكَ ولن أكون لغيرك كما أنت لي منذ البداية قد خلقني الله على اسمك وجعلك لي كنتُ سأقول كل عامٍ وأنتَ بخير كما لو أنه شخصٌ آخر قد فتح لنا بابه ولكن الكلمات ظلّت أسيرة حنجرتي

فما شاءت أن تخرج ولا أن ترجع وبقينا على هذا الحال حتى صرتُ في العشرين وأنتَ تكبرني بأربعة أعوام جئتَ مع أهلك وطلبتَني زوجةً لك

-يا الله ما أجملها قصتنا من فمكِ أتدري لو أننا لا نملك مرآةً في المنزل لكنتُ قد صدّقتُ وصفكِ لي وربما غررتُ بجمالي

-والله كنتَ ولا تزال كما ذكرت لا بل كما لا يسعني أن أصف

-هذا بمنطق القلب أما بمنطق العقل فابن الرابعة عشر لا يملك كل هذا الجمال؛ راجي الذي كان أمامكِ يومها أم يوسف عليه السلام**!!**

-لو لم يكن نبياً لقلتُ بأنك الأجمل في عيني ولكنه أجمل ما خلق ربي وأنت أحلى ما رأت عيني

-جبر الله خاطرك، عندهم كل الحق جيراننا حينما أسموني مجنون ليلى ف والله قد صرتُ مجنوناً بحبك

-بل عاقلاً كما يجب

-كما تأمر ليلى محبوبة راجي أتذكرين ليلة زفافنا تلك اللوحة التي رسمتُها فغضبتي تقولين جمّلتَني

أكثر من اللازم ولو نقلتَني على الورق كما أنا لأسعدتَني أكثر

فما كان لي أن أقنعكِ برؤياي والله إنكِ لأجمل منها وما تعلّمتُ في الفنون كلها كيف أرسم جمالاً يوازي شكلكِ

-ثم صار زفافنا بحفلٍ علاه الطابع الريفي في الساحة بين الدكاكين الكل يغني ويرقص والطبول تُقرع وقد سهرنا سبع ليالٍ قبل الزواج عائلات حينا شباباً وبنات وأطفال حتى العجائز خرجوا يمرحون معنا ويستذكرون شبابهم فينا

-وحين رزقنا الله بطفلَينا عمر وبلال بعد عامٍ واحدٍ من الزواج في شقة أهلي كيف تجهزنا لتلك المناسبة العظيمة وقد ترقبها أهل الجبل جميعاً صغيرها وكبيرها، كنتُ كلما مررتُ بالحي قاصداً مرسمي لا أسلم من أسئلة الجيران والأصحاب متى السعد

وأفهم فوراً سؤالهم لأن ولادتكِ وقدوم حبيبا قلبي كان سعدي بكل ما تعنيه الكلمة

كنتُ أتمنى لو أجيبهم بأنكِ قد وضعتِ جنينَيكِ ولكنه ذاك الجواب قد طال إلا أنّ الله لم يحرمني وإياكِ سعدنا

-ولكننا قد حُرمناه بعدها

-لا يا حبيبتي بل استودعناه في مكانٍ أكثر أماناً عند الله فهو أحن عليه منكِ ومني

-اللهم الثبات

-اللهم آمين

وبينما ليلى ذات القلوب المتكسّرة حيث حطّم ابناها اثنين والقذائف المتوالية تكفّلتْ بدمار البقية كانت تغرق من رأسها وحتى أخمص قدمها بتلك العيون التي لم تفقد بريقها بالرغم كل الظروف المريعة التي حصلتْ ما زال لمعانهما مستمّراً يبثّ الأمل بأحلامٍ كثيرة والخوف في الوقت نفسه

قاطعت شرودها سلمى بقدْحٍ اعتادت عليه ليلى

-ليلى أترين الآن وقت الغرام بينكما

-كيف أصبحتِ!؟

ما أطول لسانكِ حتى وأنتِ بهذه الحالة!، أي غرامٍ هذا تركناكِ لترتاحي فبالدواء الذي تجرّعتِه بعض التخدير

-لا عليكِ صرتُ أفضل

وناديتكِ وراجي تخفيفاً من خوفكما فقد نجوتُ والحمد لله؛ كما أنّ أحد الفقهاء في الداخل سيلقّننا درساً شرعياً؛ هكذا فهمت

(5)

-بلال... إنها خالتي سلمى كانت تناديني سمعتُها بأذني

-ولكنها بعيدةٌ يا عمر ربما اشتاقتْ لك لا أكثر

-ربما وأنا أيضاً اشتقتُ لها واشتقتُ لأبي وأمي

-ادعِ لهم ربك لا أن يخفف حِملهم بل أن يقوي ظهورهم كما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعي

-أتمنى ذلك، جبلنا يا بلال قد شارف على الانهيار وهذا أكثر ما آلمني وأنا حي وحتى الآن ما زلتُ أشتكي الألم نفسه

-إن الله معنا يا أخي نعم جاءت حربٌ نكراء قلبته رأساً على عقب وصار لهم أكثر مما لنا وما نفع اليأس بعد ذلك!

-لا والله لن نيأس لم نفعل ونحن هناك تحت القصف والنار من فوقنا فكيف لنا أن نفعل ونحن في ملاذنا الآمن

-أكثر ما أرجوه أن يربط الله على قلوب أهلينا في جبل الزاوية التي احتلت زاويةً من القلب ومثّلت زاويتها جُلّ القلب

-عندهم من الشجاعة ما يجعلهم أقوى مما نظن

-شجاعةٌ وقوة إيمان والله لن يُضيّعهم

-سأصلي وأدعو علّ هذا الكرب يستحيل فرجا

-أتذكر يا عمر حين علمتكَ أمكَ الصلاة كما فعل معي أبي

-حينها أخبرتني بأنني أُقيم فيها الدين فإنها عمود الدين مَن تركها فقد خرج عن ملة الإسلام جملةً وتفصيلا

-وهكذا قال أبي وقام يصلي أمامي بينما كنتُ أراقب حركاته بتركيزٍ شديد وجدتُها صعبةً أول الأمر وسرعان ما تعلّقتُ فيها

-كذلك أنا لقيتُها من أصعب المهام التي ألقتها أمي على عاتقي

-كان يخبرني بأن الطفل لا يتعلم من أبويه بل يقلّدهما

-معه حق ذاك العظيم أبي يا الله كم اشتقتُ لضحكته وحضنه

-واشتقتُ لغضبه الذي ينتهي غالباً بابتسامةٍ مُعتقلةٍ ومتمرّدةٍ في الوقت نفسه

-كان يحاول أن يلومنا ويربينا ولكنّ قلبه دائماً يعصيه فيجعله يبتسم آخر الأمر

-ثم إنه الغضب القصير قد فادنا بالحقيقة رغم الابتسامة التي تلحقه

-دعنا نرجع لذكرياتنا مع أول علاقتنا بالصلاة وتعلمها ف والله أجمل أيامي تلك

-شعرنا وقتها بالمسؤولية فصرنا منذ اللحظة تلك رجلَين لا طفلَين يحملا قضيةً في قلبَيهما ورأسَيهما

-أجل فحين أخبرتني أمي ألا أصلّي صلاة الحركات فهي تشبه لغة الجسد عند الغرب أكثر من صلاة المسلمين لم تكن تمارينا رياضية وحسب بل إنها القضية التفصيلية

قالت يومها حرفياً أن عليكَ أن تُحضر قلبك مع سجادة الصلاة وتسخّر جوارحك كلها للحياة مع الصلاة ركّز وأنت تصلي كما تركّز في الإجابة على أسئلة الامتحان في المدرسة على أقل تقدير

-وأمرني أبي وقد أمره الله وإياي أن نسارع للصلاة ونرتّب مواعيدنا على أوقاتها لا العكس فحين قلتُ في سري أنني

-سأصلي العصر بعد أن أغلق التلفاز فرد ينصحني وكأنه قد سمع ما جال في خاطري

-بل ستغلق التلفاز قبل أن تصلي العصر

فقلتُ أتذمّر

-وما الفرق في ذلك يا أبتي

-الفرق في أن تكون الصلاة أمراً ثانوياً في جملتك ويكون التلفاز من أولوياتك وفي جملتي فالصلاة أساسٌ وما بعدها كله فرعي

-منذ ذلك الحين وكلانا ينتظر الأذان في المسجد وبالكاد ينتهي المؤذن حتى نبدأ صلاتنا

-ما أعظمه من بين الأديان وما أعظمه من بين الآباء

-أتدري ما يقلقني يا بلال وما يرهقني حقاً

-هاتِ ما عندك

-على قدر النور الذي نعيشه هنا أجد ظلاماً عند أهلك

-استودعهم عند الله

-فعلتُ قديماً وحتى الآن وأنا أستودعهم عنده

-حسبك يا عمر أتخشى على أهلك وهم ودائع عند مَن لا يضيّع ودائعه

-سيصبح الجميع بخير إن شاء الله

(6)

-السلام عليكم أيها الأخوة والأخوات الكرام سكان جبل الزاوية بعد ثنائنا على الله وشكره فإنني أود أن تعيروني سمعكم علّ كلماتي تداوي جروحكم

فالصبر الصبر يا آل الجبل وقد سبقكم إلى هذا الكثير من الناس بأريافٍ شتى وبمدنٍ كثيرة وقبل ذلك كانت الشعوب في حروبٍ عديدة منها الأقوى ومنها الأضعف من حربنا هذه

ثم إنه جلّ جلاله ذكر حالنا في مصحفه الشريف بسم الله الرحمن الرحيم "لنبلونّكم بشيءٍ من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين اللذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون"

يبشركم الله بقوله إن صبرتم فكيف ترى أمتنا أن نُسجل من الصابرين ويا لبشرانا أم نجحد نعمة الله

ونضيق ذرعاً بأقداره وأحكامه فويلٌ لنا حينها ألم يقل سبحانه وتعالى "ومَن أعرض عن ذكري فإن له معيشةً ضنكا"

وقال في كتابه الشريف أيضاً "ولسوف يعطيك ربك فترضى"

أوَ ينسانا وقد تذكر الجنين في رحم أمه برحمته فكيف يمكن لعقولنا أن تظنه ينسانا في قطعةٍ من الأرض بلا أمنٍ ولا نصر

من اليوم أيها الناس قد كتب الله علينا الجهاد وكلّفنا به بلا استثناء وها هم أخوتنا من أقصى الديار جاؤوا لنصرتنا أوَ نقعد متقاعسين ويا قوم لسنا منكم!! أمرنا الله بالجهاد كما الصلاة والصيام والزكاة، أرى فيكم الطبيب والمدرّس الفنان والبائع تجاراً وخياطين نجارين وفلّاحين خبراتكم مختلفة وهذا عين الطلب سنجاهد كلٌ في عمله وسعة علمه والأهم من ذلك أننا سنحمل السلاح جميعنا وحتى النساء إن تطلّب الأمر، أراضي المسلمين قد مسّها الضر فماذا نحن فاعلون

-نحن لها مولانا الشيخ وكلنا لنصرة أراضي الشام المقدسة

-بارك الله فيكم جميعاً فلنمضِ على بركة الله

قصدت القذائف والصواريخ اللعينة أن تقطع خطبة الشيخ في الناس مراتٍ ومرات إلا أنه أكمل وبصوتٍ أعلى ثم بكى وهو يخاطبهم وبكوا معه فالمصاب أليم والضربة قاسية

ولكنها ليست بالقاضية

(7)

-أتذكر يا بلال كم عطشنا قبل المجيء إلى هنا ثم ارتوينا دون ماء ما أعجب أمرنا

-هذا لأننا نزفنا دماً كثيراً فبلغ منا الظمأ وبعد وصولنا لملاذنا صرخ صوتٌ من أعماقي ألا تقلق فلا بأس بعد اليوم ثم لم يكن العطش وحده الذي غادرنا بل والتعب والألم؛ أتسمع أصوات الهدم داخلك كما كنتَ تخبرني وقتما تنزل القذيفة وتضع البيوت ركاماً فتسمع الصوت وكأنه فيك

-لأول مرة يا أخي أجدك لا تجيد الوصف، لا تحسن الشرح لم تكن بتلك السهولة بضعة كلمات تلخص حادثةً ما وفي آخر السطر نقطة

إنه ألم سنين يا أخي وزخمة الحرب تنمو داخلي حتى لحظات الهدوء لم تركن معاركي ولكنك أصبتَ إذ عرفت أن شعوراً كهذا لم يعاودني هنا

-الحمد لله الذي منّ علينا وأخرجنا من تلك اللعنة وإن عجزت كلماتنا عن التعبير وخاننا رصيدنا من الكلمات فقراً إلا أن ما أحسسته قد انتابني أضعافه فنحن التوائم نتشارك المشاعر ذاتها

- ما أقسى الحرب للحظتنا هذه لم أنسَ دعاء التي ودّعت زوجها بعد زفافهم بأسبوع فقد أمسك يدها للمرة الأولى يلبسها الخاتم ظناً منه بأن خاتمه ذاك سيربطهما معاً طيلة حياته ولم يدرك وقتها أنه وبعد أيامٍ قليلة سيمسك ما تبقى من أثرها من فوق الركام وما كانت إلا يداً قد مُدت إليه لتصافحه وتعيد له خاتمه المُدمى لتكون قد صارت في عالمٍ آخر بعيداً عنه وعن حياته

-قيل إنه بكاها وقتاً طويلاً أعانه الله ما أصعب ما ألم به فكانت قصته على كل لسانٍ سوري

-أتراه أبانا سيحزن إلى هذا الحد!! أمنا لا شك أنها تموت في الدقيقة الواحدة آلاف المرات وهذا ما يقتلني آلاف المرات أيضاً

-حتماً تلك الفاجعة لم تمر مرور الكرام بقلبيهما بل وستترك وراءها قهراً عظيماً وبشائر

-قهراً وبشائر!

-نعم بشائر تخيل لو أن أحدهم قد وعدكَ في أخذكَ رحلةً إلى اللاذقية والشاطئ يناديكَ كل ليلة؛ والسماء تعزف لك ألحاناً فيروزية لتذكركَ بما ينتظرك.. نسماتٌ تهبّ على قلبك محمّلةً برائحة البحر هناك وقد سبقكَ الكثير من أصحابكَ وأهلك ينتظرونك لتكتمل متعتهم وبعد النعيم ذاك كله تأتيك رسالةٌ تطلب بعض أحبّ أشيائك لتكون قبلك وأنتَ على يقينٍ بأنك لاحقها لا ريب حيثما حلمت كيف تشعر وقتها

-أتقصد اللاذقية قبل الحرب أم بعدها

-حينما تكون المشبه به وفي نفس الوقت فالجنة المشبه فالمقصود من الحديث قبل الحرب بالتأكيد

قد سبقناهما إلى المكان الذي حلموا بالوصول إليه ولا زالوا يسعون حتى نراهم بيننا

-بالمناسبة إن سبقني ما أحب إلى اللاذقية سأزداد شوقاً للحاق به حيث المنى

-فلتنسَ اللاذقية تلك وخذ الجنة مناك فلا شك أنك ستنتظر بقلبٍ يتشوّق متوهجاً حتى الوصول

-محقٌ كالعادة أعان الله أبوينا فالطريق مليءٌ بالعثرات.

-ولكن هذا المكان جديرٌ بالنضال الذي يسبقه

(8)

كان راجي آملاً في المعارك القريبة التي حدّثهم عنها ذاك الشيخ الفقيه وبشكلٍ خاص بعد أن أخبرهم الشيخ أنه معهم في ساحة القتال وفي الصف الأول

-علّمنا يا شيخ كيف نستخدم هذا السلاح فأنا وحيد أهلي وما سبق لي أن التحقت بالجيش

-ومثلك كثر ولكن السلاح قليلٌ ولا مجال للغلط كما أن الوقت قصيرٌ جداً فعليكم فتح أبواب قلوبكم وعقولكم على مصراعَيها حتى تتمكّنون من حمله وحسن استخدامه

-كلنا على استعداد لفعل أي شيء

راحت الرجال يعلم بعضهم بعضاً آلية استخدام السلاح وتم ذلك بفترةٍ ليست بالطويلة

فاق راجي من نومه الذي سبقه الكثير من السهر والتفكير وقد زاره عمر في منامه ثم لحقه بلال كانا

سعيدين حتى النخاع؛ رمقهما بعينين تملأهما الأشواق والحسرة استعاد بعض الحياة برؤية حبيبَيه وما أيقظه إلا شهقاتها المبعثرة التي هربت إليه كانت تدعو بعد قيامها الليل ومع الدعاء غالباً ما يكون للبكاء دورٌ رئيس؛ قام إليها هو الآخر وبتنهيدةٍ أحرقت أضلاعه

-هوّني عليكِ يا حبيبتي

-زاراني في المنام بيد أنهما لا يفارقاني في يقظتي اشتقتُ إليهما كثيراً

-وكذلك يفعلان معي

رحم الله روحيهما هما الآن فخوران بنا يا ليلى وعلى اطلاع بكل ما نفعله ينظرون إلى دمعاتك ويؤلمهم سيلها المتواصل ألا تكفّين عن إيذاء قلبيهما

-والله لم أقدر على التحمل أكثر فالحمل ثقيل وقلبي يتمزق

-إنهما يعرفان أيضاً كم تكابدين في الفراق ويسمعان مناجاتك ربك وأجدهما يتطلعان بشوقٍ وتلهّفٍ لمعاركنا القادمة

-سيأتي النصر بإذن الله

لم يكن متأكداً من كلامه الذي أراده مواساةً لزوجته لكنه أعاده على قلبه علّه يهدأ هو الآخر ولا بد من اللقاء وإن طال

ثم ما لبث راجي إلا بضع دقائق من الصمت الذي أتعب روحه فبدأ يرسم لوحةً رمليةً بإصبعه الذي يحفر بالتراب أمامه وظلت ليلى تتأمله حتى انتهى من لوحته الجميلة التي وضّحتْ صورة طفلَين بأعوامهما العشر كما فارق ابنَيه يضحكان ببراءة وهما يحتضنان والديهما بدت رسمته من أجمل اللوحات التي سبق وأن رأتها ليلى ساهمت دمعاتها ليكتمل مشهد لوحةٍ ترابيةٍ بلا ألوانٍ كما أنها ليستْ بالأبيض والأسود دون ورقةٍ أو لوحٍ خشبيٍّ أو زجاجي أو ما شابه ذلك بلا قلم أو ريشة ولكنها حقيقيةٌ وهذا كفيلٌ بأن يجعلها أجمل اللوحات الفنية عالمياً ومن فوقها الزوجان يتكئ كلٌّ منهما على كتف الآخر

-سنبقى معاً مهما حدث

رفعت نظرها بمستوى عينيه الغارقتين بسحرها وألمها في الوقت نفسه

-سنبدو بهذا الجمال!، كم أشتاق اللحظة التي ستحول رسمتك لواقعي

-سنصبر حتى يأذن لنا الله ولن تكون نفوسنا إلا راضية

-يا الله كن معنا حتى نبلغ الوصول

(9)

كما هي العادة عند كل الخليقة حين يبدؤون بحديث ما بعد الصمت فمحوره غالباً يكون الطقس

بعد العديد من المشاهد والمواقف التي مرت بذاكرة عمر حاول أن يستكشف ما يشغل فكر أخيه بقوله

-طقس اليوم رائعٌ جداً أكثر ما أفضّله من بين الفصول الربيع المزهر

ظل بلال على وضعيّته نفسها ساهماً بالأفق أمامه ورد بالطريقة ذاتها

-بالفعل كل شيءٍ هنا في قمة الروعة أما أنا فأشعر وكأننا في فصل الخريف ربما كل منا يراه كما يرغب أن يكون

-هذا أنت حتى ونحن هنا تفضّل الخريف على الربيع أنت غريبٌ للغاية يا بلال تشبه أباك ولا أعرف صراحةً ما يعجبكم بالخريف وأنا لا أرى

فيه إلا الرحيل والكآبة إذ تنخفض أشعة الشمس فتبدأ عتمة الشتاء في القلوب قبل البيوت ثم تتجرد الأشجار من خضرتها وتعجز في كل خريف دهراً كاملاً

-ألهذا الحد يستفذّك!

-لا يستفذني مجرد تعجّب لا أكثر؛ فإنني لا أجد أسبابكم لمحبته بينما في الربيع تتفتّح الزهور والقلوب وتزدهي الحدائق بهيبتها كما تسمع زقزقة العصافير فتوشك على الرقيص معها الفراشات التي تحوم حول منزلنا وتستقر للحظات على نافذة غرفتي كنت أعشقها وما زلت

-الربيع جميلٌ جداً ذو بهاءٍ خاص وإن كنتُ أميل للخريف أكثر لأخبرك الآن سبب حبنا لذاك الفصل دوناً عن الثلاثة الباقية لأننا نرى يا عمر في الخريف النهايات وهذا ما قاله أبتي ذات يوم بينما كانت أمي تطرح عليه سؤالك نفسه ولأننا نحن الذين نحب النهايات بصرف النظر عن التفاصيل فترانا أكثر حباً للخريف وهدوئه الذي يجعلنا في حوارٍ هامٍ مع ذاتنا نحبه أيضاً عواصفه التي تهبّ فتحمل معها رائحة الأحبة البعيدين

بالمناسبة رائحة القهوة في الشتاء أجمل منها في الخريف وهذا ما نقلته أمي عن أبيك أيضاً

-أوَ كل هذا الجمال في فصل!! ولكنها البداية التي يحملها فصل الربيع كولادة الصبح من سواد الليل يأتي الربيع من رحم الشتاء المصقع بعد البرد يحلّ الدفء الربيع جنة الله في الأرض ثم ما كانت نهاية التي حدّثتَني عنها لولا البداية

-ولا نفع لبدايةٍ لا نهاية لها، أتذكر منذ الصغر كنت أتريّث وأنتظر ريثما يصفّق أبي بيدَيه معلناً إنهائه لوحته الفنية ثم أذهب بعد ذلك لأرى ثمرة جهده بينما أنت تتعلّق في ظهره متكئاً على كتفه تراقب الصغيرة قبل الكبيرة كما كانت تفعل أمك إذ يحثّها الفضول على التردد كل دقيقة لتعرف أين صار والدك وكم بقي له وما هي خطته وكيف أنجزها

-نعم كنتُ مشابهاً أمي وفي ذلك فخري وكنتً نسخة أخرى من أبيك

تبدو لي أمي أقل تكدّراً ربما كان الوقت كفيلاً لنسياننا

-لا بل اكتسبت قوى إضافية ربما ساعدها فقداننا في ذلك ثم كيف يخطر في بالك أن تنسى أم ابنيها!!

لن تفعل مهما حصل حتى مرضى الزهايمر غالباً يتذكرون أولادهم بذاكرة قلوبهم

-نعم لا بد من قوى جديدة تتمتّع بها أمي غيرها تلك التي كانت عندما تنزل القذائف توترها وكأن التشنج يحتلّ معدتها كما أن وجود أبي معها قد أنقذ الموقف أيضاً ولله الحمد

-هذا ما كنتُ سأقوله أبوك أقوى ويحبها فلن يدعها فريسةً للانهيار والاستسلام وهذا يكفي لحمايتها من حزنها ونفسها.

(10)

جاءت الليلة الأكثر برودةً وخطراً وكانت ليلى تحادث عمران بأعوامه الاثنا عشر وكأنه في العشرين

وقد أعارته اهتمامها وحنانها حيث ذكرتها ابتسامته بابتسامة عمر وبريق عينيه نفسه عند بلال

-أكنتَ بالمدرسة يا عمران!

-نعم يا خالتي كنتُ في صفي الرابع قبل أن يبدأ عنفهم بالظهور

-لعنهم الله وهل أحببتَ مدرستك

-بل عشقتُها من صغري وقبل أن أبلغ السادسة من عمري تشوّقتُ لدخولي المدرسة كان حلمي بأن أصير محامياً ناجحاً يراودني غير مرة

-حلمٌ جميل وما الذي حصل

سألته ببلاهةٍ وكأنها لا تعرف أنه لم يبقَ للمدارس أثر وأن المدرسين منهم مَن مات ومنهم من نجا بمعجزة إلا أنها لم تقصد بسؤالها المدرسة والدوام بل كان تلميحها على الحلم وهذا ما فهمه عمران بذكائه وسرعة بديهته

-مع وقف التنفيذ ثمة محامٍ ينتظر حتى تضع الحرب أوزارها إن لم أكن أحدها ف حتماً سأكونه بإذن الله

-سأكون وعمك راجي معك في كل خطوة

تدخّل راجي في الحديث الذي نال إعجابه كفنانٍ يمتلك إحساساً خاصاً وأخذ عمران من كتفه يسأله بترددٍ شديد خوفاً من إجابةٍ تصعقه

-أبويك أين يا عمران! لم أراك مع أحدٍ منذ وصولنا

بعد تنهيدةٍ خرجتْ مع أنفاس الفتى وقد خبأها بصدره السبعيني الذي لا يكفّ عن السعال طوال الوقت

-قد افترقا عن بعضهما وأنا في الرابعة من عمري وسافر أبي لبلدٍ أجنبي ثم بعد فترةٍ قصيرة جاءها

خبر زواجه لأمي كالصاعقة فقد أحبته أكثر من اللازم كما كانتْ تقول غير مرة

وبقيتُ وأمي في بيتنا يزورنا الأقارب في المناسبات وفيما بعد تقدّمتْ لامتحان الشهادة الثانوية ونجحتْ بتقديرٍ جيدٍ أهّلها لدراسة الحقوق وفي عامها الجامعي الثالث سرقها الموت مني بمرضٍ خبيث

-رحمها الله ما أقوى إرادتها التي نقلتها إليك بالوراثة، ستكمل مشوار أمك وتحقق حلمها أليس كذلك!

-هذا عين ما أريد إن شاء الله

مسحت ليلى دمعاتها وكذلك سلمى بعد سماع قصة عمران التي أثرت فيها حتى النخاع

ثمة حرمانٍ لا بد منه في هذه الحياة وثمة أوجاعٍ تلمّ بالبشر صغيرهم وكبيرهم دون استثناء

همست لقلبها بأسى بالغ ثم سألته وما زالت شفتها السفلى ترتجف

-وأين أقاربك أهل المناسبات هل قدم أحدهم معك إلى هذه المغارة!

-زياراتهم القليلة لم تكن لقلة أصلٍ فيهم وربما كانت كذلك إلا أن السبب الأكثر موضوعية هو سكنهم في المدينة وبين المدينة والجبل مسافةٌ طويلة

-إذن زواج أمك من أبيك كان مرفوضاً من قِبل الأهالي

-لم يكن كما اعتقدت بل زواجاً تقليدياً حيث جاء تعيين والدي مدرّساً هنا في الجبل ولمح غير مرة أمي التي تسكن هنا ثم نقل السلطة لأمه أقصد جدتي التي لا سلطة لأحدٍ أمامها وزوّجتْه أمي الجبلية كما كانت تطلق عليها دائماً

-إنّ مدرّساً ومحامية سيكون ابنهما محط فخرٍ وعز حتى ولو عاش بعيداً عنهما

قالها راجي بنبرةٍ حماسيّة وقد أخبر نفسه لا أحد يعرف الراحة هنا كلنا نتعذب

وقد أمضى سهرةً دافئةً بحنان زوجته والطفل الحالم أمامه بليلةٍ ما خلت من القصف والرعب الذي بدأ ينقص فقد اعتاد الجميع ذلك الحال

تمدّد بعد سيرة عمران يتأمل الجموع من حوله النائم منهم واليقظ ثم دعا في سره

اللهم أبناء الجبل قد استضعفوا وأنت الكريم الذي لا يخيب من قصد بابك فناجاك.

(11)

بعد أن انتهى بلال من ذكرياته أو بالأحرى أوقفها قسراً إلا أنه عمر لا يزال متسمّراً في مكانه شارد الذهن مثبّتاً نظراته على الفراغ الممتد أمامه فسأله عن سبب شروده

-أحاول أن أجد سبباً واحداً لخوف الناس من الموت إلا أنني لم أعثر عليه فكل ما هنا مرغوبٌ إلى أقصى مدى

-يخاف أحدهم الموت لجبنٍ فيه ليس إلّا؛ فهم ضعفاء للغاية ودواخلهم هشّةٌ كرمادٍ يستحيل هباءً بمجرد عبور نسمة.

-أعي كلامك ولكنني لا أقدر على الاستيعاب؛ كيف لرجلٍ أربعيني مثلاً أن يخاف ما تجرّأنا نحن أبناء العاشرة على فعله

-لأن بياضنا يحمينا من القلق فهو واقٍ جيدٍ لو تعلم

-كيف تربط الألوان بالموت! ما علاقتهما ببعض؟

-ما قصدتُ لون البشرة بل لون القلوب.. النوايا يا أخي الباطن والأفكار التي تراودنا ليلاً على الوسادة ثم التصرفات التي نقوم بها كلها تضعنا في مفترق الطرقات فنحن أمام خيارَين إما أن نرغب في الموت أو نرهب قربه

-لكننا لسنا بِيضاً كما يجب

-تماماً كنا نقع في الغلط مرات لشهوةٍ فينا أحياناً وضعف وأحياناً أخرى دون قصدٍ إلا أنه وعينا وإدراكنا بأن رحمة الله قد وسعتْ كل شيءٍ ساعدنا إلى حدٍ كبير في تكوين نظرتنا حول كل ما حولنا؛ إيماننا بالله وحسن ظننا به زرع فينا طمأنينةً بالغة الجمال فنحن على يقينٍ تام بأنه سيغفر لنا ما دمنا نستغفره

-ولكن البشر جميعاً في هذا سواء

-لا البعض يا عمر وهم كُثر ربما يستغفرون ويسبحون بألسنتهم إلا أنهم في الحقيقة لا يؤمنون بأن الله سيسامحهم ومنهم مَن يخبرك بأنه مذنبٌ حد الضياع ويخجل أن يرجع إلى الله

-معاذ الله كيف لهم أن يأخذوا باعتقادٍ كهذا؛ ألم يقل عز وجل "يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتَني

غفرتُ لك على ما كان فيك ولا أبالي؛ يا ابن آدم لو بلغتْ ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتَني غفرتُ لك ولا أبالي"

-مَن يملك نفساً ضعيفة يتجرأ حتى على الله

-لو رأوا الراحة هنا والسلام الدافئ لرجعوا برأيهم لا ريب

-سيندمون إذا عرفوا أن الله قادرٌ وما كانوا ليحسنون به الظنون

-لطالما سمعتُ كلماتك وأعجبتني من أين لك أن تعرف كل هذا؛ أمنيتي يا سيد بلال أن أتوه بأمرٍ ولا أجد عندك الجواب اليقين

-كنتُ رفيق أبي وكان مدرستي فهو كثير القراءة كما تعرف ولا سيما قراءة القرآن وفي الأخيرة ثقافةٌ عظيمةٌ لمَن يفقه

-صدقتَ فأبي رجلٌ أسطوري كاللذين نقرأ عنهم في الكتب والآن حدّثني عن الموت بطريقته

-حين طلبتُ منه أن يخبرني عن الموت لم يعقد حاجبَيه كما كنتُ متوقعاً بل ابتسم ومرر يده على

رأسي ببطءٍ شديد وكأنه يهيّئني لذاك الرد الذي أثلج قلبي

-كان يعرف الراحة السرمدية التي نعيشها الآن!

-ليس تماماً ولا بالدقة هذه ولكن حديثه عن الحياة الثانية يشبه إلى حدٍ كبير ما نحن فيه الآن فقد بدأ كلامه بابتسامةٍ مشرقةٍ كعادتها وراح يصف لي الهدف من الحياة ثم ذكر لي آيةً كريمة من القرآن الشريف "وما خلقتُ الإنس والجن إلا ليعبدون"

أخبرني أننا في اختبارٍ ربما يطول ويصعب في بعض الأحيان بنظرنا البشري إلا أنه سينتهي لا محالة وبانتهاء الاختبار كما تستلم المدرّسة أوراق الامتحان من تلاميذ صفكم فإنه أيضاً جل جلاله يأخذ أرواحنا ولله المثل الأعلى كما هو الحال في الأولى بعض الطلاب ينجح والآخر يرسب كذلك في الثانية أناسٌ في الجنة وقد ربحت تجارتهم وآخرون خسروا كل شيء فمصيرهم النار وبئس مثوى الظالمين مَن ظلموا أنفسهم قبل كل شيء؛ يبدأ الأمر ببعض الإجراءات التي تختلف من شخصٍ لآخر والمشترك بين الجميع أن القلب سيتوقف عن نبضه وضخه للدم ومن ثم يسكن

جسدنا في بيتٍ مؤقت تحت الأرض نتحكم في إضاءته خلال حياتنا قبل مرحلة توقف القلوب أما أرواحنا فتكون في مكانٍ بعيد حيث تبدأ حياتها الثانية

-ما أجمل كلامه ووصفه؛ كيف كان وقع كلماته على قلبك

-ازداد حماسي وعلت ملامحي ابتسامةً طفولية ثم قفزتُ بطريقةٍ جنونية وأنا ألحّ بطلبي للموت لحظتها فأجابني بالهدوء نفسه "لا يا بلال فالأعمار بيد الله ليست بأيدينا واختبارك لن تخرج منه إلا بإذنٍ من الذي بيده الأمر"

-لهذا كنتَ مطمئناً يوم جئنا هذا المكان بينما كنتُ أتصبّب عرقاً والشحوب يعمّ جسدي كله

-ثم هدأ كل شيء أليس كذلك!

-بلى سرعان ما أصبح كل شيء على ما يُرام

-أتدري لأي سببٍ هدأت

-لأنني طفل والله أرحم من أن يعذّب الأطفال

-بل لأنه الله أولاً وأخيراً ولأنه قد حفظنا بعينه التي لا تنام وشتّان بين حفظه وحفظ البشر مهما حاولوا

-لا إله إلا الله؛ اللهم إننا لا نفقه شيئاً فلا تؤاخذنا يا أرحم الراحمين

-آمين

(12)

جاء اليوم الذي انتظره راجي بقلبٍ أحر من الجمر حماساً لبدء الحركة العسكرية بعيداً عن المغارة التي يقطنها مع آلاف اللاجئين مثله فلنحذف كلمة اللاجئين هذه فما زال الجميع بالجبل ولنقل الفارّين لا وهذه الأخرى خاطئة أيضاً يسمى فراراً حين يتغير الحال بينما في مثل حالهم وقد انتقلوا من الخطر لخطرٍ آخر؛ أدق ما يمكن أن يُطلق عليهم اسم المحاصرين فقد حاصرهم الخوف والموت والألم من كل جانبٍ في تلك المغارة هائلة المساحة التي تتسع لمئات بل آلاف الأشخاص.

كان يومه الأول الذي جمعه مع رجالٍ من منطقته وآخرون من مناطقٍ مختلفة تعرّف إليهم وهم على جبهةٍ واحدةٍ في معركةٍ متعددة الأطراف؛ لم يذكر مَن بدء الهجوم أولاً فالقصف المتجه ناحيتهم لم

يتوقف ولا للحظة لذا كان عليه أن يقول بدأنا بالرمي المباشر خلال قذائفهم المستمرة وهو يشرح التفاصيل كلها لليلى التي جلست أمامه وكلها آذانٌ صاغية فكثيراً ما أخافها الهجوم الأول كما فعل مع باقي النسوة وردة الفعل أيضاً كانت محطاً للقلق إلا أن الأمور جرت بخطرٍ أقل مما هو متوقع.

بينما كان راجي جالساً مع ليلى وسلمى يتناولون عشاءهم ظل ساهماً بسالم ذاك الشاب الذي سرقت الحرب وسامته ويبدو أنها سرقتْ ما هو أعظم من ذلك بكثير.

يُخطئ مَن يراه شاباً عادياً نحيلاً إنما هو في الحقيقة بقايا شخصٍ من الزمن الغابر لو أن متحفاً أثرياً قريبٌ منهم لنقله راجي إليه فوراً فقد استغرب عينيه الغائرَتَين منفتحتَين على مدى واسعٍ جداً ومبالغ فيه أما نحول جسمه فيثير العجب أكثر وكأنه هيكلاً عظمياً أشبه بالرجل الآلي في برنامج الأطفال الذي كان عمر من متابعيه؛ لا بشكله هذا لن يضعوه ببرنامج أطفالٍ فمنظره يُخيفهم.

ما كان له أن يأتي بحركة بل اكتفى بالمراقبة عن بُعد حتى اقترب عمران ببراءةٍ وطفولةٍ منه يغني

"سالم حبيته والله قلبي وعطيته طول عمري لك يا سالم.. أتبع هواك يا سالم"

تيقّن عمران بأنه لن يرى ابتسامته بعد أن ينتهي من غنائه فهو لا شك بملامحه هذه قد نسي الابتسام وربما لا يعرفه إطلاقاً ولكنه صدمه وهو يجهش بالبكاء؛ كان دمعه ينهمر من عينَين يشبها تلك المغارة في عتمتها وكبرها وعمقها؛ ارتبك عمران فقد أعماها بدل أن يكحلها هكذا قال في نفسه أي جرحٍ هذا قد سكب فوقه ملحاً بحسن نيته؛ تجمّد في مكانه ثم اقترب من سالم أكثر وبترددٍ أكبر وضع يده الصغيرة الباردة ترتجف على كتفه إلا أنها لم تزد حركته هذه شيئاً ولم تنقص فبقي سالم على هيئته الهستيريّة وكأنه يقتل له حبيباً وهذا تحديداً ما أثار شفقة راجي وهيّج أحزانه فبكاءٍ مماثلٍ ودّع حبيبَي قلبه؛ انتفض مسرعاً يركض إلى عمران الذي شارك بإضفاء المزيد من الأسى على اللوحة الواقعية الحزينة وقد امتلأت عيناه بالدمع وكأن السرطان قد قصد أمه من بين الجميع في هذه اللحظة ثم ماتت باللحظة ذاتها كما لو أنه بيتهم استحال ركاماً في نفس الوقت وبشكلٍ أدق فلنقل

بيته حيث لم يبقَ من سكان هذا البيت غيره قبل أن يُهدم؛ أومأ له راجي أن اذهب حيث تقعد ليلى وابقَ معها فاستجاب له وانسحب تكتيكياً كأنه آلةٌ ما قد أتمّت عملها بينما كان سالم مستمّراً في بكائه

-كنا سوياً في معركة اليوم وكنتَ تعمل إلى جانبي ترمي وأرمي معك ولم يتسنّ لي الحديث معك والتعرّف إليك؛ أيمكن لأخيك أن يعرف ما أضعفك إلى هذا الحد

بعد تنهيدةٍ حرقت قلبيهما سأله

-أسمعتَ يوماً بعريس الجبل

فرد عليه بتلعثمٍ ملحوظ وهو يمسح له بعض دمعاته براحة كفه

-أذكره أعانه الله

-هذا أنا سالم طاقي

-أنت!

-نعم أنا منذ فترةٍ لعينة بعد زواجي من دعاء الغادي بأسبوع استهدفت قذيفةٌ نكراء منزلي الذي تشاركتُ وأهلي سكنه وأودت بحياة زوجتي وأمي وأختي

وأولادها الثلاث ليكونوا ضحايا تلك اللعنة وعُرفتُ منذ ذلك الحين بعريس الجبل

-حسبنا الله ونعم الوكيل عندما وصلنا الخبر وقع على مسامعنا كالصاعقة وقد نقلته كل المحطات التلفزيونية ومواقع التواصل <عريس الجبل سالم طاقي من احسم إحدى ضِياع جبل الزاوية في إدلب قد فارق اليوم زوجته حبيبة قلبه بعد زواجهما بأسبوع>

زفر سالم زفرةً أخرج معها الكثير من الألم والحطام داخله وقال بهدوء ما بعد العاصفة كما يسمونه وقد جفّت الدموع على خديه بعد أن تركت أثرها على ملامحه كما اعتادت أن تفعل

-مشكلتنا يا صاحبي أننا نعرف أنصاف الحقائق وننقل أنصاف ما نعرف نتداولها ببهجةٍ كأننا نعلن عن مباراة كرة قدم جديدة أو افتتاح عرضاً للأزياء والموضة في الحقيقة كل عائلتي غادرتني بالطريقة نفسها والتوقيت ذاته إلا أنها قصة العاشق
والمعشوق قد استهوتهم فسلّطوا أضواءهم عليها لا أخفي عليك كثيراً ما آلمني فراق دعاء حبيبتي التي لم يكن لها في الشر يدٌ وما كان يومها لليد جسد

حين صارت أشلاءً تحت الركام وتركت يدها تودعني وقد كان طفلاً بيننا أقصى أحلامها إلى جانب سعادتنا الزوجية والأسرية؛ ثمة شيءٍ كهذا لم يحدث فقد ماتت قبله ولكن مصابي لم يكتمل بعد والمسرحية لم تنتهِ هنا وليتها فعلت بل أكملت بخبثٍ وقتلتْ في المشهد نفسه كل عائلتي وهنا قسموا ظهري وقلبي على حدٍ سواء

-رجلٌ أنت والقوة تليق بك أكثر من هذا الهوان هيا اعتدل أيها العريس

-عريس الجبل يشتهي موتاً بدلاً من العرس وأي عرسٍ هذا تغيب فيه العروس ويرحل الأهل

-هوّن عليك ملتقانا الجنة بإذن الله؛ كأس الموت هذا سيشربه الجميع فطوبى لمَن أحسن سقايته

-الحمد لله على كل حال

-لقد مضى على حادثتكم وقتاً طويلاً؛ ما فعل بك عمران

-هيّج أبشع أحزاني وكسرني بعد كسري الذي لن يجبره إلا الموت بتلك الأغنية التي كانت تغنيها أمي لي في طفولتي حتى أغفو وأحياناً تستدعيها

لإرضائي وقت يزعجني أي شيء ثم انتقلت لزوجتي بالمرحلة الثانية فاعتادت الأخرى غناءها بصوتها الدافئ الناعم ومع ملامح عمران امتزج الصوتان في ذهني واستعادت ذاكرتي كل تفاصيل الحادثة

-لا تحزن يا صاحبي مصابك ليس بالسهل ولكنه الأخف عموماً

-الأخف! دعاء هذه يا رجل بهجة القلب الأولى بعد سنين الحب الثلاث تركتني بالطريقة الأبشع على الإطلاق هذا غير فقدان أمي وحضنها والبقية

-نعم أخف فأنت فارقت مَن تحبهم دفعةً واحدة ولكنك كوّنتَ معهم ذكرياتك ويمكنك في أي وقت العيش مع تلك الذكريات؛ ما تبقى لك منهم أحد أنت لا شك تفكر بالطريقة هذه والآن ما بالك برجلٍ رحل عنه ولدَيه فرحة عمره التي لم تكتمل ثم ظل وحيداً إلّا من زوجته التي شاركته حزنه بل وكانت الجزء الأكبر منه صدقني يا سالم أخاف النظر في عينيها مباشرةً ففي كل مرة أفعلها أتذكر كل شيء وبدقةٍ عالية

القذيفة والبيت الذي صار ضحيتها؛ بلال وعمر وهما في مشهدهما الأخير من مسلسل الحياة المخيف هذا

-جبر الله قلبك؛ ولكنه قلبي انكسر وإن لم يكن كقلوب الأمهات إلا أنه تحطم

-أجرك على الله أتظنه ينساك!

-ونعم بالله حاشاه أن يفعل

يمتلئ المرء حد الانفجار وحين يبلغ الأسى ذروته يكاد أن ينفجر كبركانٍ ثار بفجواتٍ هائلة في أول موقفٍ يحصل وهذا ما حدث مع سالم حين تصدّع كالجبل أمام عمران ونثر شتاته وما تبقى من أشلائه حِيال راجي الذي لمس فيه بعض ألمه.

(13)

-بلال أبوك منطفئ نعم هنا في رأسي ما يخبرني أن أبي قد تعب وانهار وأمي كذلك الأمر

-طبيعيٌ جداً هذا ومتوقع بتأثير الظروف التي توالت على رأسه فقدنا وخراب البيت الذي حرق سنين عمره وشبابه يبنيه؛ ذكرياتٌ مبعثرة هنا وهناك والأقسى من ذلك كله انهيار أمي التي لا تكفّ عن النواح فكثيراً ما يمر بها طيفنا والخطر الذي يحوم حولهم يحاوطهم من كل جانب كفيلٌ بتعذيب قواه

-أتعرف يا بلال لو أني مكان أبي لأنجبتُ ولداً بأسرع وقتٍ ممكن ينسيني مَن رحل ويخفف عني ألمي وربما يحمل معي بعض الأعباء التي تُتعب كاهلي

-النسيان شيءٌ لا وجود له حين يتعلّق الأمر بالأبناء فالذاكرة تصبح أقوى ما يمكن.

لا يمكن لأي اثنين أن ينسا ابنهما فكيف وإن كانا راجي وليلى فهما لا يريدان نسياننا ويخافون أن يفعلون ذات ليلة

-دعك من فكرة النسيان فهي صعبةٌ فعلاً إن لم تكن مستحيلة ولكن الإنجاب لا شك يخفف الألم ويحسن الحال إنه فكرةٌ معقولة في مثل ظرفهم

-ما بك يا أخي! مثل ظرفهم! أين تنجب أمك في المغارة وأي جنينٍ هذا سيصمد تسعة شهورٍ في رحم أمك وهي في تلك المغارة الباردة والطعام الذي يُقدم للسجناء أفضل بألف مرةٍ من تلك الوجبات الفقيرة البائسة التي يحصلون عليها ثم فلنفترض أنه غامر وعافر حتى وصل الدنيا الدنيا كيف لوليدٍ أن يحتمل برد المغارة وتلك الأصوات التي تطاله من كل جهةٍ قذائفٌ صواريخٌ وبراميل

-لطالما سمعتُ في حياتي بمَن يحوّل البحر طحينةً والآن لأول مرة أقابل مَن يفعل العكس فتستحيل الطحينة معك بحراً تفاءل يا أخي يعيش كما يعيش الجميع مع الكثير من الصعوبات التي طاردتنا قبله

-لو شاء ربك أن يجعل بينهما ولداً لفعل وربما في هذا خيرٌ لهما لا بل لا بد من الخير كله في ذلك

-نحن نعيش الآن أليس كذلك أم أننا في عداد الموتى!

-يا إلهي كم يحتلّ السؤال هذا فكرك؛ أحياء يا عمر وإلا كيف كنتَ ستحدثني وأنت ميت؛ لا مانع ربما تتحدث كما يفعل النائم في نومه دون وعيٍ منه ولكنني ميتٌ أيضاً فقد انتقلنا سوياً إلى هذا المكان؛ لو أنك ميتٌ تهذي وأنا ميتٌ أسمع فكيف لميتٍ أن يفهم سؤالاً والسؤال الأهم كيف له أن يجيب عليه بالتفصيل ويُقنعك

-لن تكفّ عن فلسفتك!

-لن أعود إليها دونك الجواب المنطقي الذي تريد ضمن هذه الآية "لا تحسبنّ اللذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياءً عند ربهم يُرزقون"

-حسبك أخي ولكن أحياء هذه تذكرني بالحياة هناك في الجبل وكان الجميع يسميها حياة فشككتُ بأن هذه لم تكن حياة

-كلاهما حياة والأولى تختلف عن الأخرى كلياً فحياتنا هذه السرمدية لن يعيشها كل مَن مات ألا تلاحظ في الآية الكريمة شرطاً للوصول لحياتنا "قتلوا في سبيل الله"

-لا إله إلا الله؛ لم أكن يوماً نقطةً في بحرك ولنا العمر نفسه أشك أحياناً أنك سبقتَني بالنزول إلى الدنيا ببضعة ثواني هل استطاعت الدنيا أن تعطيك كل هذا النضج بالثواني تلك! إن كان كذلك فلي المبرر الكافي للفارق الكبير بيننا

-لا علم لنا إلا ما قد منحنا إياه الله فلنحمده قبل كل شيء ثم ماذا عنكَ وقد تأخرت عني بضع الثواني نفسها لتلحقني بقلبٍ رقيقٍ طيبٍ يسكنه حبٌ لو عشتُ آلاف السنين لن أبلغه هل استطاع رحم أمكَ أن يمنحك كل هذا الحب بالثواني تلك!

-جبر الله خاطرك

-جبر الله قلبَينا وكسْر أبوَينا جبر الله تصدّع جبلنا

-اللهم آمين

(14)

انشقّ الصبح ولا دلائل على قدومه في تلك المغارة المكتظّة بالناس فالعتمة نفسها ليلاً كان أو نهار والبرد ذاته في كليهما؛ ثمة صوتٍ لأذان الفجر لم يُسمع إلا أنه راجي حين ينام على مشروعٍ ما سينفذه في الصباح فإنه يعمل كساعة غرينيتش حيث استيقظ في الخامسة وخرج لتغتاله أشعة الشمس الحادة الأولى؛ غسل وجهه وتوضأ بغية الصلاة ما إن التفت إلا ووجده على يمينه يفرك عينيه بنشاطٍ غريب

سأله عمران الذهاب معهم هذا الصباح

-لا أنت صغير وجسدك لا يحتمل؛ أن تبقى مع ليلى وسلمى أفضل لك ولهن

-لستُ صغيراً بل رجلاً دعني أثبت لك ثم جسدي هذا الذي لا يحتمل! وكأنه سالم الذي يكبرني بسنوات ذو بنيةٍ جسديةٍ خارقة أنا أقوى منه صدقني

-ونعم الرجل يا عمران؛ أولاً بينك وبين سالم عشر سنوات على أقل تقدير ثم إنه تجرّع من الألم ما يكفي ليصير حاله كما ترى إياك والكلام عنه بالطريقة هذه وتحديداً أمامه

-حسناً لن أتحدث عنه أبداً إن وعدتَني أن تأخذني معك فأنا أيضاً من أبناء الجبل

-وتشترط!

إن أمن الرجال على نسائهم وأنت معهم خيرٌ من ذهابك لا تقدر على مساعدتنا ثم إن ليلى التي تحبك كبعض أولادها قد تألمت وكُسر قلبها بفقدها ولدَيها لا أخشى عليكَ الموت فتفقدكَ أنت الآخر الأعمار بيد الله ولكنني أردتك جنبها مواسياً قلبها المكلوم؛ ألا يمون عليك عمك راجي

-كحبي لوالدَيّ أحببتكما؛ أرح قلبك وطمئنه لن أترك باباً مفتوحاً واحداً ليدخل من خلاله الحزن قلبها؛ ابنها الوفي معها لا تقلق

-حفظك الله يا هدية الله سبحانه يرسلنا بعضنا لبعضٍ رحمات

-وأنتما رحمتي التي أرسلها ربي بعد كل مصائبي

بدأت الرجال تستيقظ تباعاً وقد حان موعد الصلاة

-ما رأيك أيها الرجل العمراني أن تصلي إماماً فينا؛ توضأ ونحن بانتظارك

-لكنك أكبر مني وهناك مَن هو أكبر من كلينا أيجوز!

-يمكنك فعلها لا تأخذها حجةً هيا فالكل ينتظرك

توضأ عمران وراح يكبر ويتجهّز للصلاة وعلى يمينه راجي متأخراً عنه بضع خطوات؛ بدأ يرتل الصغير ما حفظ من القرآن بصوته العذب ثم أبكاه صوته لأول مرة يقرأ ويبكي فيبكي من ورائه الجميع؛ بكى راجي ابنَيه بلال وعمر وبكى سالم فرحته التي لم يُكتب لها أن تكتمل؛ بكى كل اللذين فقدوا وقصّروا بكوا تقصيرهم وضعفهم ما إن انتهوا من صلاتهم إلا ووجوههم ملطّخةٌ بالدمع المُستنزف ثم خرجوا بمعركةٍ جديدة.

(15)

-ريح الجبل يعبر روحي يا بلال رائحة أمي وألوان أبي تسري هنا

-لا تبالغ

-ليست بالمبالغة إنهم يقتربون

-ما هذا إلا انعكاسٌ لاشتياقك

-ربما ولكنني مرتاحٌ ولستُ بالخائف؛ الطمأنينة تسكنني

-الحمد لله على راحة قلبك؛ أخبرني يا صاحب الحاسة السادسة أم أقول السابعة كيف ترى أحوال الجبل

-وكأنك لا تعرف

-ما تراه أعمق من رؤياي فغالباً ما تغلب البصيرة البصر

-رماديٌ جوها لا يستقر على لون تهدأ تارةً حربها ثم ما تلبث أن تشتعل وتتوهج؛ أظنهم وقت السلام يُعدّون للحرائق ويحضرون لها من بعيد تلك التي تحرق كل أخضرٍ ويابسٍ من جبلنا ولكن أهل الجبل والكثيرون معهم لن يبرحون حتى يتخلصون من كل طاغٍ فهم يفعلون كل ما بوسعهم لاسترداد حقنا وهذا يزرع فينا الأمل

-الحمد لله الجهاد فريضةٌ لا يجوز تجاوزها لو كنا معهم كنتُ سأحمل السلاح رغماً عن الجميع

-أتعتقد أنهم كانوا سيمنعوننا لو فعلنا

-بالتأكيد فأمي ستبكي وتلطم لعنادنا وأبي سيقنعنا حتماً بأن نعدل عن قرارنا فعمرنا الصغير لا يسمح لنا

-كان بالإمكان حل المشكلة

-كيف نحلها؟

-أخرج مع أبي حاملاً سلاحاً قد تدربتُ على حمله وتبقى مع أمك تحميها وترعى قلبها

-فكرةٌ معقولةٌ جداً لو طرحتَها بطريقةٍ أصح تبقى مع أمك وأرافق أبي فأنا دائماً ما كنتُ معه وأنت الأقرب إلى أمك

-الحمد لله أننا لم نكن هناك؛ أجدني وإياك على خلافٍ ونحن هنا فكيف وإن كنا سنفعل ذلك كلٌ منا يحب الجهاد ويكره كسر قلب أمه

-تماماً كنتُ أحلم بحمل السلاح في وجه العدو الذي طالما سمعنا عن إجرامه ورأيناه كرهناه وتمنينا لو أنه رجلاً واحداً نضرب عنقه وينتهي الأمر

-سينتهي ذات يوم عندما يشاء الله أن ينهي الاختبار كما أخبرتَني ليلة أمس

-إن شاء الله

(16)

-هيا يا سلمى كفاكِ نوماً فقد ذهب الرجال كلهم؛ علينا أن نعدّ لهم طعاماً مميزاً بعد تعبهم وعملهم الشاق أعادهم الله لنا سالمين غانمين

-لحظة فقط.... سالم أين لا تقولين لي إنه صحبهم

-بل فعل

-لا أنتِ تكذبين

صدمتها ببكائها وهي تندب وتلطم فقد بكت بحرقةٍ لم يسبق لها أن فعلت حتى بعد موت بلال وعمر وقد كانا رفيقَيها إلى أقصى حد

-اهدئي

-كيف أهدأ لماذا سمحتم له أما رأيتم ضعفه أين عيونكم أين قلوبكم وعقولكم أين؟

انفجرت في وجهها كعبوة غازٍ قد امتلأت فوق طاقتها ببكاءٍ هستيريٍ جنوني كحال العشّاق والنيران تتقد في أحشائهم أما الأخرى فقد تسمّرت

بمكانها وراحت تتلعثم بجوابها بعد أن تفاجأت بفعل سلمى

-أبى كل محاولاتنا في الرفض ولم يأبه بحالته لسببٍ وحيد <رجلٌ وقد عاهد نفسه وأهله ألا يسكت عن حقه وحقهم>

-مع ذلك لا مبرر لكم للسماح له بالالتحاق بجيشهم

-حسبكِ يا سلمى لماذا سالم دوناً عن الجميع فراجي هناك وكل الرجال معهم ألا تنتبهي أننا نساءً وأطفالاً وحسب أم تريدينه ينضم لأولئك الشيوخ وهو أقدرهم على الجهاد

-لأنه أخذ حصته كلها

-أي حصة

-حصته من الألم والفقد ثم تقصدين لماذا أهتم به وإن كان جوابي سيصدمكِ فليفعل "إنني أحببته"

-أجننتِ

-إن كان الحب جنوناً فقد فعلت

-أتهذين! ما هذا الهراء الذي تتفوهين فيه

-الإنسانية ليست هراءً يا ليلى

-أحببته هذه ليست مجرد حروف تنثرينها أينما شئتِ هذه حياة وما الحياة إلا أحببته هذه فلا ترمينها في غير موقعها

-أحببته لم أقل أشفقتُ عليه

-لكنكِ ستجرحينه إن كنتِ على نية إخباره

-بل سأعوضه

-وتتركينه بنصف الطريق

-وكأنه حدثٌ من رواياتكِ التي سبق لكِ قراءتها لمرات فحفظتيه كحفظك اسمكِ؛ لا لن أتركه كما تجزمين

-كيف ستكون حياتكِ معه إن وافق أفكرتِ بها أم أنها لا تعنيكِ

-كحياة كل المتزوجات

-لن تكون كذلك

-خذي التشاؤم هذا وابتعدي أريد أن أرتاح أشعر بجسدي متكسراً ووخزٌ عنيف يضرب خاصرتي

-أعراض الحب ربما!

-فلتسخري كما تشائين

-ستكونين الطبيبة لجراحٍ لا دواء لها ستكونين دعاء التي لن ترحل سيراها فيكِ أما أمه فلن تقدرين على إزاحتها من ذاكرته وقلبه وأخيراً لن تكونين أبداً أهله اللذين فقدهم ربما سيرى الحرب فيكِ ويجدكِ البديل الذي قدّمتْه تلك اللعنة عوضاً عن أحباب قلبه

-سأتزوجه

-لن أدعكِ تفعلين إن كان هو فعلاً مستعداً لاستبدال ماضيه بزهرة عمرك وربيع شبابك

-ما الذي يمنعه

-أن يكون للحادثة ضحيةً خيرٌ من أن يقع لها ضحيتان

-يا الله؛ ليلى

-أنتِ بخير سلمى ما بك

وضعت سلمى يدها اليمنى التي لم تكفّ ثانيةً عن رجفتها على خاصرتها وأطاحت بها كلمات ليلى أرضاً فجحظت عيناها أما وجهها فكأن الليمون هاجر من فلسطين يلجأ إلى وجهها وكفَيها فقد اكتسى وجهها لونه الأصفر وعمّ الشحوب جسدها وسرعان ما عُقد لسانها

-سلمى لا تخيفين رفيقتك؛ كما تشائين سيكون كل شيء كما تخططين

سلمى أتسمعين كلامي؛ يا ناس يا ساكني المغارة بالله عليكم ساعدوني

سلمى؛ سلمى

ركض عمران الذي رآها مُلقاةً أمامه وليلى من فوقها تبكي بخوفٍ رهيب

-عمران أتعرف سعيد الذي أسعف سلمى بالأمس قد خرج معهم صباح اليوم الحق بهم ولا تعد إلا معه فحالتها خطيرةٌ على ما يبدو

-حسناً انتظرونا

-أحضره معك في أي حال

-سوف أفعل هدّئي من روعك لن يصيبنا إلا ما كتبه الله لنا

-أتعرف أين تجده

-نعم لا تقلقي

-لا تتأخرا؛ مع السلامة

ركض عمران نحو البعيد ظل يركض ويركض ثم يهدأ يلهث من شدة التعب والعطش ويتابع ركضه حيث وجد سعيد أخيراً بين الجموع وقد أوشك الرصاص أن يخترق أذنَيه؛ كان كلما اقترب علا صوت الرصاصات المبعثرة فاتخذ من صوته بوصلته؛ كاد أن يقول شيئاً ولكنها الكلمات ظلتْ عالقةً في حلقه فأومأ له وسحبه من يده وما كان لسعيد أن يرفض فملامح عمران توحي بالخطر بينما ليلى تسرح في نظرها لسلمى المُغمى عليها أمامها وقد انتظم نبضها لدقائق ثم عاد لاضطرابه يتسرع تارةً وأخرى يتباطأ

-يا إلهي كم تأخر عمران

سلمى أنتِ معي! أتسمعين صوتي؛ بالله قومي لا تقلقيني أكثر

-رغم إلحاح ليلى إلا أن سلمى قد فقدت وعيها بالكامل؛ لحظات وبدأت تأخذ شهيقها بأسلوبٍ مخيفٍ جداً وكأن الصخرة التي وضعها أمية على صدر بلال الحبشي قد لعبتْ معها الدور ذاته ثم تحول أصفر وجهها لأزرقٍ غريب بعد أن هربت منه الدماء عادت إليه مكثفةً بلونها الجديد الذي أشبه

زرقة البحر وأشد عمقاً من لون ثوبها الذي ترتديه أما ليلى فقد فقدت اتزانها لمجرد تفكيرها بشبح فقدها سلمى كما سبق لها وأن فارقها حبيباها وبهجة فؤادها.

-أين أنت يا عمران كل هذا الوقت قد تأخرتَ كثيراً؛ خالتي أم سعيد ابقي معها لو سمحتِ ريثما أستعجله سأنظر أمرهما وآتيكِ

-أنتِ يا ليلى! أين ستذهبين؟؟

-تأخر كثيراً ربما تاه في الطريق قد زاد من قلقي هو الآخر سأذهب حيث دلّني بالأمس راجي سألتقيهم هناك وأعود معهما

-أذهب أنا عوضاً عنكِ وابقي مع ابنة عمك

-لا يا خالتي أنا أسرع وعندكِ من الخبرة ما لا أملك؛ هذه سلمى بين يديكِ وأمانةٌ عندك

-إذن أسرعي

-لن أتأخر بإذن الله استودعتها عند الله

اتجهت ليلى حيث أخبرها راجي بمكانهم وركضت في الجهة نفسها على أمل أن يكون سعيد بمجموعة راجي ذاتها حيث شرح لها فيما مضى أنهم يتفرّقون

على مجموعاتٍ شتى؛ لم تضلّ الطريق كما ظنتْ بل كان أكثر يسراً وسهولةً مما توقعتْ إلا أنه صوت القذائف الوارد والرصاص الصادر كاد أن يصرعها فحين اقتربت أكثر راحت تتقدّم خطوةً وتتأخر خطوات ثم التقت به أخيراً وقبل أن يسألها راجي عن سبب قدومها الذي فاجأه وأقلقه حيث لم يتسنّ لها هي الأخرى أن تسأله عن سعيد فيما إذا كان معه أو في موقعٍ آخر يعرفه حالت القذيفة بينهما لتجمعهما في مكانٍ آخر

وصل عمران مع سعيد كلٌ يتكئ على كتف الآخر ويتخذ منه عكازاً له تحمّل سعيد متاعبه بصعوبةٍ بالغة وهرول إليها فارغ اليدين كما لم يُرَ طبيبٌ قط واقترب يتحسّس بيده نبضاتها المتهاودة فاختلط عليه نبضه بنبضها لكنها وحسب خبرته بدت له من الأحياء؛ طلب الماء الذي سكبت أمه منه على وجه سلمى ليأخذ بعضه ويمسح يدَيها فيه ويقوم بتدليكها؛ وبصدماتٍ كهربائية فعلها يدوياً بالحال استطاعت أن تتنفس بشكلٍ أكثر طبيعيةً من ذي قبل

-ما سبب تعبها هذا

-الإرهاق يا أمي ثم إن إصابتها الأولى لم تبرأ منها بشكلٍ كامل وقد أخفيتُ عنها قصة الشظية التي ظلت عالقةً في خاصرتها اليمنى إذ استحال استئصالها وقتذاك إلا أنه البرد والتدهور النفسي قد حركها فانهار الجسد بالكامل تحت تأثيرها

رد على أمه ويداه تضغطان حيث استقرت الشظية حتى تمكّن من ثباتها لوقتٍ محدود فلا بد من عمليةٍ جراحيةٍ قريبة يتم فيها إخراجها

اعتدل منظرها إلى حدٍ ما وعاد لونها الطبيعي شاحبٌ إلى حدٍ معقول ودقائق مضت قبل أن تفتح عينيها وقد سُلب سوادهما حتى شربت بعض الماء من بين أصابع سعيد الذي بات كميتٍ قد رُدت له روحه وقد ارتوت ولا يزال الشعور بالتعب يتملّكها وهي تسأله

-أين ليلى

انطلق عمران وأتاها بطعامٍ لم تكن تشتهيه إلا أنها استندت على كتف سعيد لتعدل جلستها وهي تشكرهما فقدّمه لها وأعانها عمران مع ابتسامته المعهودة التي لا محل لها في ظل ظروفه على تناول القليل منه

(17)

-بلال انظر النور هناك

انتفض بلال لنبرة صوت عمر المفاجئة والتفتَ حيث أشار له بإصبعه

-مَن هناك؟

قال بتوترٍ يمتزج بالسعادة والقلق فقد مرتْ بذاكرته لوحات أبيه وشجيرات عمر؛ بركته الصغيرة عذبة الماء وخبز أمه ذو الرائحة التي تفوق رائحة العطور جمالاً؛ أغنام جيرانهم وصوت ديكهم الصباحي أما عمر فقد اتسعت عيناه كما فعل قلبه وراح يحدّق بالنور الذي بدأ يقترب منهم شيئاً فشيئاً ثم نادى بصوتٍ قاطعه نبض قلبه

-إنها أمي يا بلال وذاك أبي إنهما هنا

-كيف ميزتهما لا أرى سوى الضوء المنبعث من تلك الجهة

فرك عينيه براحتَي كفَّيه علّه يرى ما قد رآه عمر

وبالفعل تمكّن مؤخراً من رؤية المشهد كاملاً

-إنهما هنا يا عمر؛ أبي أنت هنا! أمي أسمعينا صوتك

-أنتما هنا أم أننا نتخيل؛ أماه حبيبكِ عمر قد اشتاق حضنكِ اقترب أكثر يا أبي

قال عمر بصوتٍ مبحوح وكأنه في منامٍ جميل لا يريد أن يفيق منه أبداً

-عمر أتراهما فعلاً!!

-نعم إنهما في مركز النور قادمَين إلينا

-الحمد لله هذا يعني أنني أراهما بعينَي لا بقلبي وذهني

-أماااااه

-أبتاااااه

-هنا معكما تأخرنا عليكما!

-قدر الله أن تبلغا ملاذكما في هذه اللحظة هذا النعيم حرفياً لا شيء ينقص هنا لا غصة لنا إلا غيابكِ وأبي

أجابها عمر والضحكة ترتسم على وجهه فتزيد جماله جمالاً فالدفء كله قد لحق بهما أما بلال فركض لحضن راجي يسأله بمنطقٍ بحت

-كيف تركتما الجبل يا أبتي أود أن تكون بمَن فيها بخيرٍ وسلام

-كما فعلتَ وأخوك لا شيء يتغير في تلك الأرض سوى البيت الذي مات معكما قد استبدلناه بمغارةٍ باردةٍ فارغةٍ إلا من الناس حتى الفئران تتمنّع عن زيارتها فقد سبقها الفقر وسكنها الخوف معنا

فرد عمر بأسى متأثراً بوصف أبيه

-ماذا لو أنها حرباً كهذه لم تندلع في الجبل كما لو أنه ظلّ في ريعان شبابه كفتاةٍ حسناء يشتهيها الجميع ولم يمسسها أحدٌ بسوء ما الذي كان سيحصل لو أنكما ما عرفتما تلك المغارة اللئيمة

بطبعه الجدّي أجابه راجي

-بكل بساطة ما كنا هنا

فأكملت ليلى شارحةً كلام أبيه المختصر

-لولا الحروب التي تنشب في البلاد الجميلة فتقلبها رأساً على عقبٍ؛ لولا أننا ننجب وتسرق الحرب

أولادنا فنصبر لولا البيوت المهدّمة والمغارات والمخيمات العنيفة المظلمة ما كان لنا أن نحظى

بهذه المكانة وما كان لك وأخيك أن تسبقانا لهذا الهناء

استأنف بلال

-ما هذا إلا الخير الذي اختاره الله

فأجاب عمر

-الحمد لله الذي لم يحرمنا عطاءه؛ الحمد لله دائماً

ثم سكت يصغي لتلك الضحكات التي تطوف حولهم وهمسٌ خفيفٌ لأطراف حديثٍ مخملي قد تفلّت من قبضتهما وركض إليهم فالتفت راجي ثم ليلى بفعل ولدَيهما ليجدوه مع زوجته عريس الجبل سالم الذي قطع حديثه مع دعاء ليلة أمس فعاد ليكملاه في بيتهما الجديد.

تمت بفضلٍ من الله

مسودة _الخميس 9\9\2021

جبل الزاوية: اسم سلسلة جبلية تقع في إدلب في سوريا؛ يقع في الجزء الشمالي من جبال الكتلة الجبلية الكلسية في شمال غرب سوريا- وتُعتبر

من أكثر المناطق المُستهدفة لدى النظام السوري في المرحلة الزمنية الأخيرة.

ورد عن مالك أن الروح تكون مُرسلةً تذهب حيث تشاء وقال كعب: إن روح المؤمن في السماء السابعة في عليّين والكافرين في الأرض السابعة في سجّين؛ وجاء عن ابن حزم وغيره أن الروح تستقر بعد الموت في المكان الذي كانت فيه قبل خلق الجسد وقال ابن عبد البر إن أرواح الشهداء في الجنة وأرواح المؤمنين غير الشهداء في القبور كما قال ابن شهاب إن أرواح الشهداء معلّقةٌ بالعرش كالطير وتذهب إلى الجنة

والكثير من الأقوال حول استقرار الأرواح بعد الموت والعلم عند الله وحده عموماً فالقصة خيالية وحسب.

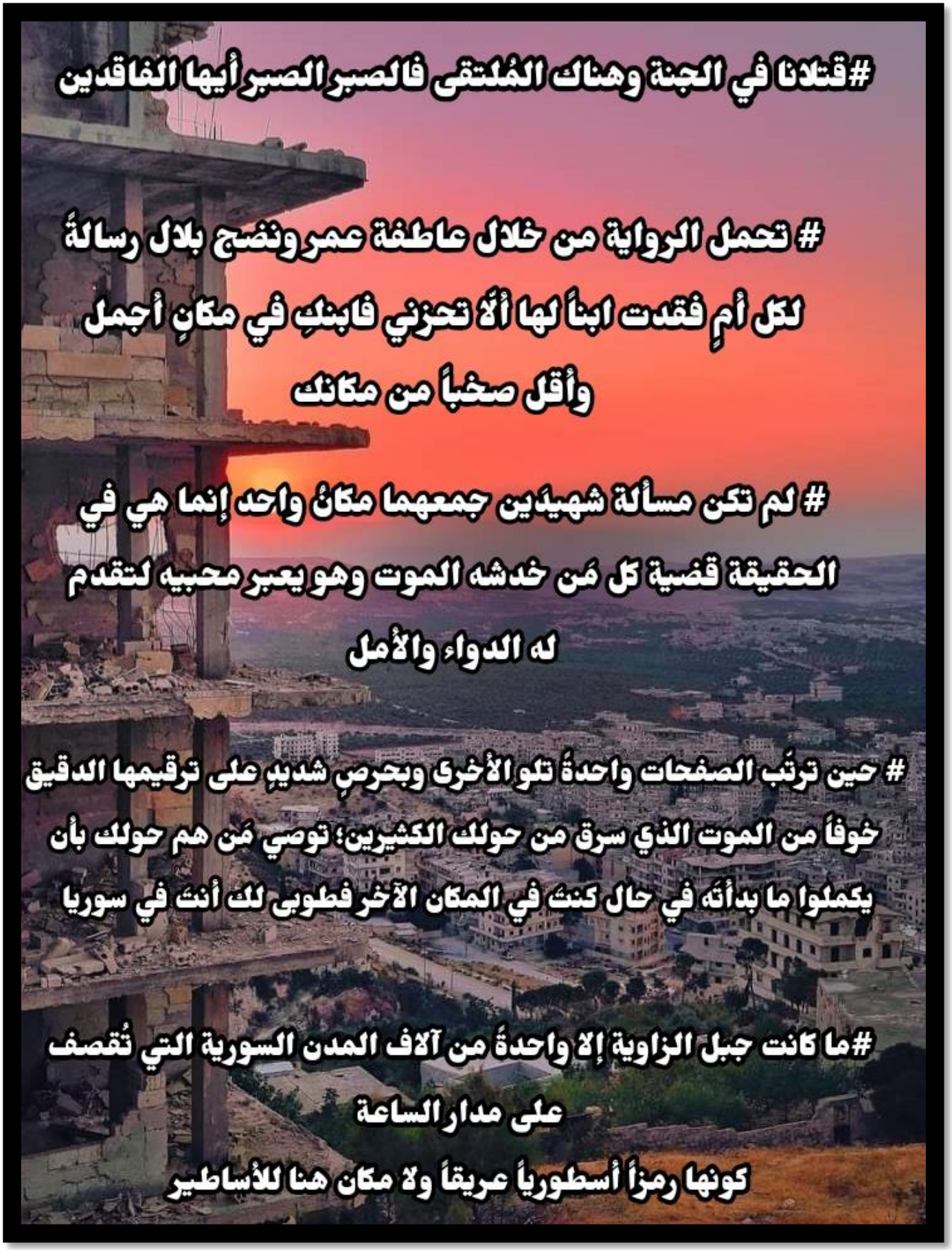
#قتلانا في الجنة وهناك المُلتقى فالصبر الصبر أيها الفاقدين
تحمل الرواية من خلال عاطفة عمر ونضج بلال رسالةً لكل أمٍ فقدت ابناً لها ألّا تحزني فابنكِ في مكانٍ أجمل وأقل صخباً من مكانك
لم تكن مسألة شهيدَين جمعهما مكانٌ واحد إنما هي في الحقيقة قضية كل مَن خدشه الموت وهو يعبر محبيه لتقدم له الدواء والأمل
حين ترتّب الصفحات واحدةً تلو الأخرى وبحرصٍ شديدٍ على ترقيمها الدقيق خوفاً من الموت الذي سرق من حولك الكثيرين؛ توصي مَن هم حولك بأن يكملوا ما بدأته في حال كنتَ في المكان الآخر فطوبى لك أنتَ في سوريا
#ما كانت جبل الزاوية إلا واحدةً من آلاف المدن السورية التي تُقصف على مدار الساعة
كونها رمزاً أسطورياً عريقاً ولا مكان هنا للأساطير